

العلاقات المصرية الكردية: انقطاع طويل وتدارك مضطرب

أميرة الطحاوي*

amiraaltahawi@hotmail.com

أن يعيش معك وبنفس المنطقة شعب يتعدى الثلاثين مليون نسمة دون أن تعرف عنه شيئاً ذا بال فالأمر يدعو للدهشة ، أما انطباق ذلك على الموقف المصري تجاه المسألة الكردية إدراكاً وتعاطياً فهو أمر يستوقف أي مراقب ، فعبّر التاريخ تزايدت أرسدة التقارب بين العرب والكرد ، كما تناغمت مصالحهما في مواجهة أعداء مشتركين (غالباً) ، وبعض هؤلاء الأعداء في تعاون وتحالف معلن ، إن استعراضاً للمحطات الأبرز في العلاقات المصرية الكردية من شأنه توضيح المفارقة أكثر ، ودفع الجهود لتفعيل هذه العلاقات مستقبلاً

قديمًا وفي عهد لم يعرف أثناءه العرب ولأى يجب انتماءهم الإسلامي كانت العلاقات المصرية الكودية ، واندفعت أثناء حكم صلاح الدين الأيوبي لمصر والشام وأجزاء من ليبيا ، يحيط نفسه بالجنود من كل بلد يفتحه دون إيثار لبني جلدته ، ينتصر في حطين 1193م. رافعاً راية العرب والمسلمين أمام مد أوربي متسربل بالدين ، وفي عهده ومن تلاه اختلط الكرد ممن أقاموا بالبلاد بأهلها ، منصهرين في البوتقة المصرية ، وتوالى وفود الكرد الفارين من الدولة العثمانية على وكان مقتل الجنرال ، المحروسة . بوصول الحملة الفرنسية على مصر (1798-1801) تتلقى الضربة تلو الأخرى كليببر هو الأشد إيلاماً وتقريباً لرحيل الفرنسيين ، جاء هذا الحدث على يد كردي ثائر من الشام يدعي "سليمان الحلبي" ، أما أسرة محمد علي التي تناوب أبناؤها بعد ذلك حكم مصر (1805-1952) فهناك من المصادر ما يشير لأصلها الكوري ، فولى عهد البلاد "الأمير محمد علي" يصرح أن الأمير الخديوية تنحدر من أصل كردي إذ أن والد محمد علي باشا من أبناء "ديار بكير" في كردستان تركيا ومنها هرب إلى اليونان بعيداً عن الظلم العثماني ، لقد تكرر هروب عائلات كردية من فارس وتركيا وسوريا إلى مصر ، حيث لمع الكثير منهم في مجالات الأدب و العلم ، كالعائلة النيمورية والأخوين وانلي ثم العقار وشوقي وحتى عوائل محي وكاظم وبدرخان ، إلى حد أن يعضاً من قرى الريف المصري استقبلت أفواجاً من الهاربين الكرد ، واستقروا هؤلاء فيها بصورة جماعية ، فتجد قري باسم "منية الأكراد" وما شابه ذلك

سياسياً: يمارس بعض هؤلاء نشاطهم الداعي لدفع الظلم عن الكرد في الإمبراطورية العثمانية ومثيلتها الصوفية ، ينشئ مدحت بدر خان اللاجئ الكردي الجمعيات الكردية و الصحف ، هو ومن تلاه ، مثل نادي الأمل - هيوى وصحيفة بالأرض الشريف طوال النصف الأول من القرن كردستان عام 1898 ، وصحيفة الشمس ، وينشط رواق الأكراد العشرين ، يحدث هذا والأسرة الحاكمة توطد علاقتها بالأساتنة والفرس إلى حد التزاوج والتصاهر مع حكاهم الذين إيسيمون مواطنوهم الأكراد العذاب

لم تقتصر الأهداف الستة التي وضعتها ثورة يوليو 1952 على الإصلاح الداخلي ، بل شملت القضاء على الاستعمار وأذنابه "وبالطبع مساندة حركات و قوى التحرر الوطني كما، حددت الثورة دوائر علاقاتها وانتماءاتها الأهم في الدائرة العربية والأفريقية والإسلامية ، واضطلعت القاهرة بدور محوري في تأسيس حركة عدم الانحياز التي شملت منظمات ودول معظمها من العالم الثالث والجنوب المتأخر تنموياً ، من كل ذلك كان متوقفاً بل ومقبولاً أن تساند مصر وقتها القضية الكردية

وسواء تفهم عبد الناصر هذه القضية كشأن عربي (لكونها تتعلق بأقليات قومية جزء منها داخل دولتين عربيتين هما العراق وسوريا) أو كقضية أمة فتنتها الاستعمار عمداً بين دول الشرق الأوسط ، منها العربي وتركيا وإيران ، نفس الاستعمار الذي (اصطنع الحدود ورسمها بطريقة مغرضة بين الدول العربية ، كان بمقدور ناصر أن يساند قضية عادلة كهذه خاصة رحاها لا تدور على تراب مصر ، ولكن ما يحدث شئ آخر فأثناء الوحدة المصرية السورية 1961-58 تتوتر علاقات القاهرة بغداد فلا تجد الأولى وسيلة أنجح للهجوم على الثانية سوى التشهير بسلوكها القمعي لمواطنيها الكرد ، ورغم أن أمراً مشابهاً تسلكه دمشق من اضطهاد لأكرادها لكن القاهرة تصمت ، بل يرتكب إعلامها تحيزاً غير مسبوق لم يعهده أحد في تغطيته لقضية تحرر وطني ، إذ يفرق بين شعب واحد مقسم بين دولتين بناء على علاقة النظام الناصري بكل منهما ، لقد كان رجل الشارع المصري وقتها متعظشاً لسمع وتصديق أي شئ ستذكره وسائل الإعلام الرسمي عن

* باحثة مصرية

الأكراد ، هؤلاء الذين تمردوا على حكومات بغداد الموالية للغرب ، هؤلاء الذين يحاربون قاسم ذا العلاقة المتوترة مع ناصر ، هؤلاء الذين عرضوا التطوع للدفاع عن مصر ضد العدوان الثلاثي 1956 (وسيتكرر الأمر في حرب 1967) ، هاهو الإعلام المصري يشبع عطش المتلقي ، ولكن...، جريدة الأهرام الفاهرية تنشر في 7 مارس 1961 تحقيقاً صحفياً

– يفترض كونه ميدانياً – عن أكراد الإقليم الشمالي للوحدة (سورياً) ، ويصورهم الصحفي على أنهم "يمائلون مطاريد الجبل –قطاع طرق وهاربيين من العدالة بصعيد مصر ،... وانهم عرب نسوا لغتهم عبر الزمان ، وان سر تسميتهم بالكردي يعود لانحدارهم من قبيلة عربية تدعي (كردي بن عامر) على حد قول البعض ، وان الحل الأمثل لتمردهم – لاحظ المصطلح – يأتي من وزارة التربية والتعليم والأزهر المصريين وذلك بإرسال مدرسي لغة عربية يعيدون تقويم لسانهم "،ولا مانع من معالجة فكرة القومية والدولة الكردية تلك التي زرعتها الاستعمار!!!!

بعد الانفصال ، يندد نظام مصر بحملات البعث السوري ضد الكرد العزل وما شملته من تهجير وتعذيب وإسقاط جنسية خاصة القمع المنظم لأكراد الجزيرة بين عامي 63-64 ، أما أكراد العراق فتواصل القاهرة إيداء تفهمها لقضيتهم (رغم تحسن علاقتها مع نظام انقلاب عام 1963 ضد عبد الكريم قاسم بقيادة عبد السلام عارف) ، فمع بواكير الثورة تعلن القاهرة في يونيو 63 عن حتمية حل القضية الكردية سلمياً، وتستقبل ضمن وفد شعبي عراقي عقب نجاح ثورة 63 السيد جلال طالباني ممثلاً عن الملا مصطفى البرزاني زعيم الثورة الكردية بالعراق ، وضح الأكراد ليس فقط مطالبهم ، بل ورؤيتهم وموقفهم من أي دولة عربية اتحادية يزعم إنشاؤها ، ومع ذلك لا تحرك القاهرة ساكناً عندما يقصف الطيران العراقي بمساعدة من مثيله السوري كردستان العراق في 12 يونيو من العام نفسه ، تكرر القاهرة مطالبتهما بحل سلمي وعندما يجلس الأكراد هناك مع مفاوضين لحكومة عارف ، تطلب الثورة الكردية من الجزائر ومصر تدعيم الخيار السلمي ، ولكن ما أن تعلن مصر ذلك حتى تطالبها بغداد بعدم التدخل في شئونها كدولة ذات سيادة ، لقد قدمت جريدة تصريحات رسمية : إن "الجماهير" العراقية مثلاً واضحاً للخوف من أي دور مصري في هذه القضية ، حيث شوهد القتال لن يجني ثمرة أحد ولن يضع حلاً ، لتصبح العبارة "إن عدم التوصل لحل سلمي للمشكلة الكردية في العراق معناه أن المجرمين في حكومة بغداد لا يمكنهم الصمود أمام الأكراد في ميادين القتال ، وانه لا أحد يقف بجوار هذه الحكومة في العالم كله أن الجيش العراقي به مشاكل تمنع نجاح في هذه الحرب ، وقد تصل الأمور لحد الثورة على الحكومة الحالية " تسارع القاهرة لنفي هذه الادعاءات ، وتحول وجهها قليلاً إلى أكراد تركيا على استحياء ، ولم تحاول توظيف تواجد الفاعل في العدد من المنظمات العالمية والإقليمية لطرح مظالم الكرد ، وان لم تمنع جهداً يتم في سبيل ذلك ، فدعمت مع روسيا طلباً قدمته مغولياً لمناقشة حملة بغداد هذه ضد مواطنيها الكرد و 29 يونيو 1963 .. كل هذا التناقض والتخبط الناصري في (عام واحد)!!

من جديد يؤثر التحسن في علاقات القاهرة دمشق على تناول الأولى لمشاكل الكرد ، فلا تدافع عنهم أمام حملة مارس في سوريا العام 1967 ، ولا عن أكراد إيران أو تركيا إلا عندما تسو علاقاتها بأبي من هذه الدول ، أي عندما يحتدم الصراع على الزعامة الإقليمية والتنازع بالعمالة وقيام الأحلاف والأحلاف المضادة وغير ذلك من مفردات فترة الحرب الباردة ، يلحظ والمدقق في التناول الناصري لقضية الكود (خاصة بعد نكسة 1967 التي تعرضت لها مصر على يد إسرائيل) انتصاراً متصاعداً للحل السلمي ، وهو اتجاه كان من مهندسيه السيد كمال رفعت عضو مجلس قيادة الثورة والكتاب محمد حسنين هيكل والوزير أمن هويدي (الذي شغل لسنوات 1963 – 1965 منصب السفير المصري بالعراق) ، وتفاوتت الوسائل ودرجة المساندة ، سمح بقناة كردية ضمن الإذاعات المصرية الموجهة ،لدي الرئاسة المصرية ،وبالطبع ينفرد فيكاد يظهر لدى الدول التي تقتطع أجزاء من كردستان وكأنه مناصر وأحياناً مؤلب – الكرد ،النظام المصري بهذه الأمور الأولى.

يتواصل التمثيل الكردي في القاهرة في عهد السادات وحتى عام 1975 فقط ،وليس بالفعالية المعهودة فقد وقعت اتفاقية للحكم الذاتي بين بغداد وممثلي الأكراد في 11 مارس 1970 ، ومع الاستعداد العربي ضد مصر يعد جولات السلام مع إسرائيل 78-79 صممت بعض الأقسام المصرية والقيادات الحاكمة عن تعاون كردي إسرائيلي، بل إن المتقاطعة الغربية لمصر ونقل الجامعة العربية خارجها أوحث للسادات بإنشاء جامعة للشعوب العربية لتكون منتدى للجمعيات والجهات المعارضة للحكومات العربية (شاملة تجمعات غير عربية بالطبع)،ولحس الحظ لم تخرج الفكرة للنور إذ أوضح الكاتب أحمد بهاء الدين للرئيس المصري أي خطر تنطوي عليه من استخدام المعارضة القومية والسياسية ضد الحكومات العربية...

تقيل هو العبء الذي ورثه مبارك عن سلفه ؛ فالوضع الداخلي معقد ومؤثر سلباً على السياسة الخارجية ،التدهور الاقتصادي دفع أمواجاً من العمالة المصرية للخليج والعراق بينما علاقات مصر مع هذه الدول مجمدة رداً على صلحها المنفرد مع إسرائيل ،أثر النظام الجديد الابتعاد عن أي نزاع داخلي عربي ،فلا المناخ الدولي (الممثل في انفراج علاقات قطبي العالم) ولا نية مصر العودة للصف العربي ولا قدرتها الاقتصادية الهشة ولا شتات أبنائها عمالاً في دول عدة (منها العراق) ،لاشيء يغزى بالتدخل ،لا حديث عن الأكراد أو غيرهم ،وعندما تتدلع الحرب العراقية الإيرانية تسير مصر مع الهوى العام مؤيدة العراق ،وتعود القاهرة لما سمي بالصف العربي إذ تعود للجامعة العربية وتعود الأخيرة لها كمقر دائم في 1987 عندما تقع مذابح حلبجة الدموية ضد الكرد ثم حملات الأنفال سيئة الصيت لا تحرك القاهرة ساكناً باستثناء

منظمة حقوق الإنسان المصرية بالإسكندرية التي تصدر بياناً ،وفي العام التالي يعلن عن مجلس التعاون العربي ضمماً العراقي ومصر والأردن واليمن (الجنوبي ثم الموحد) ،كغيره ،يفاجأ مبارك بعملية الثاني من أغسطس 1990 أو هكذا يبدأ الأمر ،وتشارك القوات المسلحة المصرية ضمن القوات التحالف الدولي لإجلاء العراق عن الكويت ،وتبدأ حملة لحشد رأي عام ضد نظام صدام حسين ومناهضة احتلاله للكويت،فتح الإعلام المصري – الرسمي ملف صدام الدموي (الذي كتبت بعض صفحاته أثناء لقاءات الزعيم العراقي والمصري في النصف الثاني من الثمانينات)،وركزت البرامج على لقطات أرشيفية لمذابح الكرد ، وطال الهجوم حرب صدام ضد إيران باعتبارها كانت مفتعلة وكان من الممكن تقاديبها !،وتحتدم معارك حرب الخليج الثانية ويوجه الرئيس الأمريكي "بوش" نداء لشعوب العراق لإسقاط صدام ،وتحظى مشاهد الانتفاضة الكورية مارس 1991 بتغطية إعلامية هائلة (بينما تحظى مثلتها في الجنوب الشيوعي بهامش الاهتمام) وينتقل الإعلام المصري قمع صدام للانتفاضة الأكراد وهجرة نحو 1.5 مليون كردي للجبال ذات الثلوج ولأنها عبر ممرات مليئة بالألغام ،فيما بالهجرة المليونية ،يزداد التعاطف المصري شعبياً مع هذا الشعب ، لكن ما أن تنتهي الحرب ،وينسحب صدام حسين من الكويت ثم من شمال أو كردستان العراق (طوعاً) وما أن يعلن الكرد إدارة لملئ الفراغ الأمني والإداري بالإقليم الكردي ، حتى يهب نفر من المتقنين المصريين محملاً الكرد كل الوزر :فهم الشوكة في خاصرة العرب وهم عملاء للترك والصهاينة وهم سبب كل ضربة تلقاها (وسيتلقاها) العراق ... الخ هذه المهاترات ، وجاءت الحرب الأهلية الفصيلين الأكبر الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة – مسعود البرزاني والاتحاد الوطني الكردستاني – بزعامة جلال طالباني ثم التدخل التركي فالإيراني ،لتتردد شكوك القاهرة ومتقفيها وساستها تجاه هذا الإقليم الوليد ،وكانت دعاوى "الحفاظ على وحدة التراب العراقي" ورفض الاستفادة من الظروف السيئة المحيطة بالعراق لإضعافه وإقامة أي ترتيب جديد"وما شابه ذلك هي التعبيرات الأثيرة لدي المتحدثين الرسميين باسم الحكومة المصرية ، و التي اعتبرت اقتحام الجيش العراقي لأربيل 31 أغسطس 1996 لصالح حزب بارزاني ضد حزب طالباني (وما رافق ذلك من تنكيل بعناصر المعارضة العراقية التي قبض عليها هناك) مجرد شأن داخلي، ومع ذلك بدأت الاتصالات ولعامين مع الأطراف الكردية خاصة بعد أن دخلت الأخيرة في هدنة العام حسب اتفاقية أنقرة 1997 .

كانت الحرب الأهلية الكردية وحتى دخول جند صدام لأربيل مناسبة جيدة للإعلام المصري ليظهر قوميته العربية وأن تحدثت برامج عن "الأمة الكردية" و الدعوة لـ "حقن دماء الشعب العراقي عرباً و كرداً" و التمدد "بالدور التركي في شمال العراق" ، وتلازم ذلك مع الإعلان مع الحلف التركي الإسرائيلي ثم تفعيله 1996 ، والتزمت التركي ضد سوريا و العراق في موضوع مياه الفرات وتسليم الزعيم الكردي أوجلان زاعمة وجوده بسوريا لحد تهديدها بشن حرب على دمشق وبالطبع لا تحتاج لأخرى على العراق إذ استباحته أرضه مره خلال الفترة من 1992 عشرات المرات. أي فترة الفراغ الأمني في كردستان العراق – وحتى منتصف 1997 -) كما أشارت بعض الصحف المصرية بوجود عوائل مصرية احتجزها القتال الأهلي الكردي ، وبعد 31 أغسطس 1996 ومد منطقة حظر الطيران جنوباً وقصف مواقع الأقلام المصرية الحدث بدرجة من التشوش خالطة مدنية و عسكرية في الوسط بسبب دخول جند صدام للشمال!!- تناولت بين الأكراد كضحية وكسبب أو غطاء للضربات الأمريكية، في حين ظهر مقال في الأهرام لكاكتب يقول أن الأكراد في العالم كله 7 مليون ويقسمهم على دول المنطقة لحد استخدام كسور الأرقام (العشرية) و الغريب أن المقال بعنوان "محاولة لفهم" ،وكانت إحدى نشرات الإذاعة المصرية تربط خبرين أحدهما عن القتال الأفغاني و الآخر عن القتال الكردي خالطة بين قوات طالبان و قوات شاه مسعود من ناحية و قوات جلال طالباني و قوات مسعود برزاني من ناحية أخرى وعلى شاكلة هذا الكثير !.

في مايو 1997 يبدأ التمثيل الكردي بالقاهرة في حين نفذ حزب الاتحاد من الفرصة المتاحة (قبول القاهرة مكتب تمثيل للحزبين لدى رئاسة الجمهورية) فإن الحزب الديمقراطي أعلن (نحن بانتظار رد القاهرة على مطالبنا بمكتب سياسي وإعلامي رسمي و معلن!) وبين فترة و أخرى يزور وفد كردي (أكراد المهجر – البرلمان الكردي بالمنفى – القناة الكردية الأوروبية) ولا جديد بعد ذلك، ندوات قليلة ، إعلام على مستوى الجرائد و الأحزاب، ثم حوار عربي كردي دار معظمه عن "صلاح الدين" و "أحمد شوقي" و "عفا الله عما سلف" ولا جديد في الأمر سوى مواجهة هجوم سفارة العراق و تركيا على هذا الحوار الخفيف التعارفي، وللعمل الكردي بالقاهرة (مع وجود جالية صغيرة جدا لا تتعدى المائة نسمة معظمها من الطلبة الأكراد، و مع عراقيل عدة) أتى ثماره في فترة اعتقال الزعيم الكردي عبد الله أوجلان.. إذ ارتفعت أسهم القضية الكردية ككل لدى المواطن العادي غير المسيس، لكن هاهما ذا الحزبان الكرديان العراقيان بعد أن استأنفا حليف الأمم- أو ضد الإسلام السياسي. يندهشون: لماذا لا يتعاطف معنا -PKK حرباً تلو الأخرى بينهما أو ضد المصريين؟ الحقيقة أن أكراد العراق لم يضعوا أجندة أولويات أو خطة عمل لتفعيل الدور المصري في قضيته ولم يتنبهوا لانكماش المطلق في السياسة الخارجية المصرية إقليمياً (باستثناء فلسطين – إسرائيل) ،لم يتخلوا عن ولاءات إقليمية تضر بالصالح الكردي قبل العربي.

هذا مجرد رصد للمحطات الأبرز في علاقة مصر بالكرد خاصة في سوريا و العراق أسقطنا منه عمدا العلاقات الكردية الإسرائيلية بدء من الستينات وهو ما مهد للقفوة المصرية الكردية في السبعينات ولو على مستوى النخبة الوطنية، كذلك التعاون الكردي الإيراني في الثمانينات(أثناء الحرب العربية الإيرانية ولا نقول العراقية فقط)، ثم التواطؤ الكردي التركي في التسعينيات ، و هذه الأمور على ما بها من لغط وجدل لا يمكن تجاهلها ،لكن تناولها يتطلب ما هو أكثر من الرصد

ويوجب على المضطلع بهذه المهمة حياداً يغلب على التعاطف مع شعب الله المصلوب (على حد وصف فهمي هويدي للکرد)، فهذه السياسات تبنها – لو صح الزعم - قادة أكراد ولكن الشعب وحده يدفع ثمنها.